

حديث قطين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جاء في امتحان شهادة إتمام الدراسة الابتدائية لهذا العام في موضوع الانشاء ما يأتي :

« تقابل قطان أحدهما سمين تبدو عليه آثار النعمة ، والآخر نحيف يدل منظره على سوء حاله ؛ فماذا يقولان إذا حدث كل منهما صاحبه عن معيشته ؟ »

وقد حار التلاميذ الصغار فيما يضعون على لسان القطين ، ولم يعرفوا كيف يوجهون الكلام بينهما ، وإلى أي غاية ينصرف القول في محاورتها ؛ وضاقوا جميعاً وهم أطفال — أن تكون في رءوسهم عقول السنائر ؛ وأعيانهم أن تنزل غرائزهم الطيبة في هذه المنزلة من البهيمية ومن عيشها خاصة ، فيكتموها تدير هذه القِطاط لحياتها ، وينفذوا إلى طبائعها ، ويندجوا في جلودها ، ويأكلوا بأنيابها ، ويمزقوا بمخالبها .

قال بعضهم : وسخطنا على أساتذتنا أشد السخط ، وعبناهم بأقبح العيب ؛ كيف لم يعلمونا من قبل — أن نكون حميراً ، وخيلاً ، وبغالاً ، وثيراناً ، وقردة ، وخنازير ، وفئراناً ، وقططة وما هب ودب ، وما طار ودرج ، وما مشى وانساح ؛ وكيف — ويحهم — لم يلقنونا مع العربية والانجليزية لغات النهيق ، والصهيل ، والشحيج ، والحوار ، وضحك القرد ، وقبائح الخنزير ، وكيف نصيء ونموء ، ونلغظ لَغَط الطير ، ونفح خفيج الأفعى ، ونكش كشيش الدبابات ، إلى ما يتم به هذا العلم اللغوي الجليل الذي تقوم به بلاغة البهائم والطير والحشرات والهمج وأشباهاها .. ؟ وقال تلميذ خبيث لأستاذه : أما أنا فأوجزت وأعجزت ، قال أستاذه : أجدت وأحسن ، ولله أنت ! وتالله لقد أصبت ! فماذا كتبت ؟ قال كتبت هكذا :

يقول السمين : ناو ، ناو ، ناو . . . فيقول النحيف : نو ، نو ، نو . . . فيرد عليه السمين : نو ، ناو ، ناو . . . فيغضب النحيف ، ويكشر عن أسنانه ، ويحرك ذيله ويصيح : نو ، نو ، نو . . . فيلطمه السمين فيخدشه ويصرخ : ناو . . . فيثب

عليه النحيف ويصطرعان وتختلط « النو نو » لا يمتاز صوت من صوت ، ولا يبين معنى من معنى ، ولا يمكن الفهم عنهما في هذه الحالة إلا بتعب شديد بعد مراجعة قاموس القِطاط . . . !

قال الأستاذ : يا بني ، برك الله عليك ! لقد أبدعت الفن إبداعاً فصنعت ما يصنع أكبر النوابع ، يظهر فيه باظهار الطبيعة وإخفاء نفسه ، وما ينطق القط بلغتنا إلا معجزة لنبي ، ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فلا سبيل إلا ما حكيت ووصفت ، وهو مذهب الواقع ، والواقع هو الجديد في الأدب ؛ ولقد أرادوك تلميذاً هراً ، فكنت في إجابتك هراً أستاذاً ، ووافقت السنائر ، وخالفت الناس ، وحققتم للممتحنين أرقى نظريات الفن العالي ، فان هذا الفن إنما هو في طريقة الموضوع الفنية ، لا في تلفيق المواد لهذا الموضوع من هنا وهناك ؛ ولو حفظوا حرمة الأدب ، ورعوا عهد الفن لأدركوا أن في أسطرك القليلة كلاماً طويلاً بارعاً في النادرة والتهمك ، وغرابة العبقرية ، وجمالها وصدقها ، وحسن تناولها ، وإحكام تأديتها لما تؤدي ؛ ولكن ما الفرق يا بني بين « ناو » بالمد ، و « نو » بغير مد ؟ . . . قال التلميذ : هذا عند السنائر كالأشارات التلغرافية : شرطة ونقطة وهكذا . قال يا بني ولكن وزارة المعارف لا تقرّ هذا ولا تعرفه ، وإنما يكون المصحح أستاذاً لا هراً . . . والامتحان كتابي لا شفوي . قال الخبيث : وأنا لم أكن هراً بل كنت إنساناً ، ولكن الموضوع حديث قطين ، والحكم في مثل هذا لأهله القائلين به ، لا المتكلمين له ، المتطفلين عليه ؛ فان هم خالفوني قلت لهم : اسألوا القِطاط ؛ أو لا فليأتوا بالقطين : السمين والنحيف ، فليجمعوا بينهما ، وليحرشوها ثم ليحضروا الرقباء هذا الامتحان ، وليكتبوا عنهما ما يسمعون به وليصفوا منها ما يرونه ، فوالذي خلق السنائر والتلاميذ والممتحنين والمصححين جميعاً — ما يزيد الهرآن على « نو » ، وناو » ولا يكون القول بينهما إلا من هذا ، ولا يقع إلا ما وصفت ، وما بُدّ من المهارشة والمواثبة بما في طبيعة القوى والضعيف ، ثم فرار الضعيف مهزوماً ، وينتهي الامتحان !

إن مثل هذا الموضوع يشبه تكليف الطالب الصغير خلق هرتين ، لا الحديث عنهما ؛ فان إجابة الانشاء في مثل هذا الباب ألوهية عقلية تخلق خلقها السورى الجميل نابضاً حياً كأنما وضعت

وهذه بلاغة رذائلي . وكيف لعمرى يستطيع إبليس أن يؤدي عمله الفنى . . ويصور بلاغته العالية إلا فى ساقطين من أهل الفكر الجميل ، وساقطات من أهل الجسم الجميل ؟ . .

لقد بعدنا عن القطين ، وأنا أريد أن أكتب من حديثهما وخبرهما .

كان القط الهزيل مرابطاً فى زقاق ، وقد طارد فأرة فالحجرت فى شق ، فوقف المسكين يتربص بها أن تخرج ، ويؤامر نفسه كيف يعالجها فيبتزها ، وما عقل الحيوان إلا من حرفة عيشه لا من غيرها . وكان القط السمين قد خرج من دار أصحابه يريد أن يفرج عن نفسه بأن يكون ساعة أو بعض ساعة كالقططة بعضها مع بعض ، لا كأطفال الناس مع أهليهم وذوى عنايتهم . وأبصر الهزيل من بعيد فأقبل يمشى نحوه ، ورآه الهزيل وجعل يتأمل وهو يتخلىع تخلىع الأسد فى مشيته وقد ملأ جلده من كل أقطارها ونواحيها ، وبسطته النعمة من أطرافه ، وانقلبت فى لحمه غلظاً ، وفى عصبه شدة ، وفى شعره بريقاً ، وهو يموج فى بدنه من قوة وعافية ، ويكاد إهابه ينشق سماً وكدنة . فأنكسرت نفس الهزيل ، ودخلته الحسرة ، وتضعض لمرأى هذه النعمة مرحة مختالة . وأقبل السمين حتى وقف عليه ، وأدركته الرحمة له إذ رآه نحيفاً متقبضاً ، طاوى البطن ، بارز الأضلاع ، كأنما همت عظامه أن تترك مسكنها من جلده لتجد لها مأوى آخر . فقال له : ماذا بك ، ومالى أراك مُتَيْبَساً كاليت فى قبره غير أنك لم تمت ، ومالك أعطيت الحياة غير أنك لم تحي ، أوليس الهر منا صورة مختلة من الأسد ، فمالك — ويحك — رجعت صورة مختلة من الهر ؟ أفلا يسقونك اللبن ، ويطعمونك الشحمة واللحمة ، ويأتونك بالسّمك ، ويقطعون لك من الجبن أبيض وأصفر ، ويفتقون لك الخبز فى المرق ، ويؤثرك الطفل ببعض طعامه ، وتلك الفتاة على صدرها ، وتمسحك المرأة بيديها ، ويتناولك الرجل كما يتناول ابنه . ؟ وما جلدك هذا مغبراً كأنك لا تطلعه بلعابك ، ولا تمنعه بتنظيف ، وكأنك لم ترقط فتى أو فتاة يجرى الدهان بريقاً فى شعره أو شعرها ، فتحاول أن تصنع بلعابك لشعرك صنيعها ؟ وأراك متزايلاً الأعضاء متفككا حتى ضعفت وجهت ، كأنه لا يركبك من حب النوم على قدر من كسلك وراحتك ، ولا يركبك

فى الكلام قلب هر ، أو جاءت بالهر له قلب من الكلام . وأين هذان الأطفال فى الحادية عشرة والثانية عشرة وماحولهما ؟ وكيف لهم فى هذه السن أن يمتزجوا بدقائق الوجود ، ويدخلوا أسرار الخليقة ، ويصبحوا مع كل شىء رهناً بملله ، وعند كل حقيقة موقوفين على أسبابها . وقد قيل لهم من قبل فى السنوات الخالية « كن زهرة وصف . واجعل نفسك حبة قمح وقل » وإنما هذا ونحوه غاية من أبعد غايات النبوة أو الحكمة ؛ إذ النبىء تعبير إلهى تتخذ الحقيقة الكاملة لتتطرق به كلمتها التى تسمى الشريعة ، والحكيم وجه آخر من التعبير ، تتخذ تلك الحقيقة لتلقى منه الكلمة التى تسمى الفن .

وقد كان فى القديم امتحان مثل هذا ، لم ينجح فيه إلا واحد فقط من آلاف كثيرة ؛ وكان المتبحر هو الله جل جلاله ؛ والموضوع حديث النملة مع النمل ؛ والناجح سليمان عليه السلام « قالت نملة : يا أيها النمل ، أدخلوا مساكنكم ، لا يحيط منكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكاً من قولها »

إن الكون كله مستقر بمعانيه الرمزية فى النفس الكاملة ؛ إذ كانت الروح فى ذاتها نوراً ، وكان سر كل شىء هو من النور والشعاع يجرى فى الشعاع كما يجرى الماء فى الماء ، وفى امتزاج الأشعة من النفس والمادة تجاوب روحانى هو بذاته تعبير فى البصيرة وإدراك فى الذهن ، وهو أساس الفن على اختلاف أنواعه : فى الكلمة والصورة ، والمثال والنعمة ؛ أى الكتابة والشعر والتصوير والحفر والموسيقى .

ومن ذلك لا يكون البيان العالى أتم إشرافاً إلا بتام النفس البليغة فى فضيلتها أو رذيلتها على السواء ؛ فان من عجائب السخرية بهذا الانسان أن يكون تمام الرذيلة فى أثره على العمل الفنى — هو الوجه الآخر لتمام الفضيلة فى أثره على هذا العمل ؛ والنقطة التى ينتهى فيها علو من محيط الدائرة هى بعينها التى يبدأ منها الانحدار إلى السفلى ؛ ومن ثم كانت الفنون لا تعتبر بالأخلاق ، حتى قال علماؤنا : إن الدين عن الشعر بمعزل . فالأصل هناك سمو التعبير وجماله ، وبلاغة الأداء وروعته ؛ ولا يكون السؤال الفنى ما هى قيمة هذه النفس ، ولكن ما طريقته الفنية ؟ وأى عجيب فى ذلك ؟ أليس لجهنم حق فى كبار أهل الفن ، كما للجنة حق فى نوابغها ؟ وإذا قالت الجنة : هذه فضائل البليغة ؛ أفلا تقول الجحيم

منه الشحمة واللحمة ، فان رغباتنا لا بد لها أن تجوع وتفتدى كما لا بد من مثل ذلك لبطوننا ، ليوجد كل منهما حياته في الحياة ؛ والأمور المطمئنة كهذه التي أنت فيها هي للحياة أمراض مطمئنة ، فان لم تنقص من لذتها فهي لن تزيد في لذتها ، ولكن مكابدة الحياة زيادة في الحياة نفسها .

وسر السعادة أن تكون فيك القوى الداخلية التي تجعل الأحسن أحسن مما يكون ، وتمنع الأسوأ أن يكون أسوأ مما هو ، وكيف لك بهذه القوة وأنت وادع قارئ محصور من الدنيا بين الأيدي والأرجل ؟ إنك كالأسد في القفص ، صغرت أجمته ولم تزل تصغر حتى رجعت قفصاً يحده ويحبسه ، فصغر هو ولم يزل يصغر حتى أصبح حركة في جلد ، أما أنا فأسد على مخالي ووراء أنيابي ، وغِيضَتِي أبدأ تتسع ولا تزال تتسع أبداً ، وإن الحرية لتجعلني أتشمم من الهواء لذة مثل لذة الطعام ، وأستروح من التراب لذة كلفة اللحم ، وما الشقاء إلا خلجان من خلال النفس ، أما واحدة فأن يكون في شريك ما يجعل الكثير قليلاً ، وهذه ليست لمثلي مادمت على حد الكفاف من العيش - وأما الثانية فأن يكون في طمعك ما يجعل القليل غير قليل ، وهذه ليس لها مثلي مادمت على ذلك الحد من الكفاف . والسعادة والشقاء كالحق والباطل ، كلها من قبل الذات ، لا من قبل الأسباب والعلل ، فمن جاراها سعد بها ، ومن عكسها عن مجراها فبها يشقى .

ولقد كنت الساعة أختل فأرة انبحرت في هذا الشق فطعمت منها لذة وإن لم أطمع لحماً ، وبالأمس رماني طفل خبيث بحجر يريد عقرى فأحدث لي وجعاً ، ولكن الوجع أحدث لي الاحتراس ، وسأغشى الآن هذه الدار التي بازائنا فآية لذة في السلة والخطفة ، والاستراق والانتهاج ثم الوثب شداً بعد ذلك ! هل ذقت أنت بروحك لذة الفرصة والنهزة ، أو وجدت في قلبك راحة المخالسة واستراق الغفلة من فأرة أو جردز ، أو أدركت يوماً فرحة النجاة بعد الروغان من عابث أو باغ أو ظالم ؟ وهل نالتك لذة الظفر حين هو لك طفل بالضرب فهو لته أنت بالعض والعقر فقر عنك منهزماً لا يلوى ؟

قال السمين : وفي الدنيا هذه الذات كلها وأنا لا أدري ؟ هلم أتوحش معك ، ليكون لي مثل نكرك ودهائك واحتياك ، فيكون لي مثل راحتك المكدودة ، ولذتك المتعبة ، وعمرك المحكوم

من حب الكسل على قدر من نعيمك ورفاهتك ، وكأن جنبيك لم يعرفا طنفسة ولا حشية ولا وسادة ولا بساطاً ولا طرازاً ، وما أشبهك بأسد أهلكه ألا يجد إلا العشب الأخضر والمهشم اليابس ، فماله لحم يجيء من لحم ، ولادم يكون من دم ، وانحط فيه جسم الأسد ، وسكنت فيه روح الحمار !

قال الهزيل : وإن لك لحمة وشحمة ، ولبناً وسمكا ، وجيناً وفتناً ، وإنك لتقضي يومك تلطع جلدك ماسحاً وغاسلاً ، أو تنطرح على الوسائد والطنافس نائماً ومتمدداً . أما والله لقد جاءتك النعمة والبلادة معاً ، وصاحت لك الحياة وفسدت منك الغريزة ، وأحكمت طبعاً ونقضت طباعاً ، وربحت شبعاً وخسرت لذة ، عطفوا عليك وأفقدوك أن تعطف على نفسك ، وحملوك وأعجزوك أن تستقل ، وقد صرت معهم كاللداجة تسمن لتذبح ، غير أنهم يذبحونك دلالاً وملالاً .

إنك لتأكل كل من خوان أصحابك ، وتنظر إليهم يأكلون ، وتطمع في مؤاكلتهم ، فتشبع بالعين والبطن والرغبة ثم لا شيء غير هذا ، وكأنك مرتبط بحبال من اللحم تأكل منها وتحتبس فيها .

إن كان أول ما في الحياة أن تأكل فأهون ما في الحياة أن تأكل ، وما يقتلك شيء كاستواء الحال ، ولا يحبيك شيء كتفاوتها ، والبطن لا يتجاوز البطن ، ولذته لذته وحدها ، ولكن أين أنت عن إرثك من أسلافك ، وعن العلل الباطنة التي تحركنا إلى لذات أعضائنا ، ومتاع أرواحنا ، وتهينا من كل ذلك وجودنا الأكبر ، وتجعلنا نعيش من قبل الجسم كله ، لا من قبل المعدة وحدها ؟ قال السمين : تالله لقد أكسبك الفقر حكمة وحياة ، وأراني بازائك معدوما بزوال أسلافي مني ، وأراك بازائى موجوداً بوجود أسلافك فيك . ناشدتك الله إلا ما وصفت لي هذه اللذات التي تعلق بالحياة عن مرتبة الوجود الأصغر من الشبع ، وتستطيل بها إلى مرتبة الوجود الأكبر من الرضى ؟

فقال الهزيل : إنك ضخم ولكنك أبله ، أما علمت - ويحك - أن المحنة في العيش هي فكرة وقوة ، وأن الفكرة والقوة هما لذة ومنفعة ، وأن لفحة الحرمان هي التي تضع في الكسب لذة الكسب ، وسعار الجوع هو الذي يجعل في الطعام من المادة طعاماً آخر من الروح ، وأن ما عدل به عنك من الدنيا لا تعوضك